عرض موجز عن :

القرويين ماضيها وحاضرها

بقلم الاستاذ حسن السائح

مهما يختلف المؤرخون فى شروط الاقدمية للجامعات العلمية ، فان القرويين ستكون اقدم هذه الجماعات لانها بنيت فى فاتح رمضان سنة 245 هـ موافق 30 نونبر 859 ميلادية ، واذا كانت بنيت لتكون مسجدا فان الاسلام دين التعليم والقراءة ودراسة الكتاب الكريم ، والقرآن محور الدراسات الدينية والعلمية والفلسفية والادبية ايضا ، ولذلك استمر التعليم بها الى يومنا هذا دون ان ينقطع ، وسوف لن ينقطع الى أن يرث الله الارض ومن عليها .

واذا كان المؤرخون كتبوا مجلدات عن تاريخ القرويين فاغفلوا الكثير ، فما احرى أن يكون عملنا مقتضبا جدا ، مهما حاولنا التركيز ، وقصدنا الاول أن نعطى فكرة مصغرة عن القرويين ، ورسالة (القرويين) وعظمة علمائها الذين التزموا خدمة الثقافة الاسلامية فما ضعفوا وما قصروا ، وبفضل كفاحهم ما يزال نورها الوهاج يرشد الانسانية للمحجة البيضاء.

قبل تأسيس المدينة

واية ارض يعمرها الانسان أحب اليه من سفح معشوشب جميل ، تتدفق الانهار فى جنباته ، وتتعانق الاغصان على ضفافه ، ويطل عليه الجبل شامخا يحرس الغابة الشجراء ، والزيتونة المتسلقة، والكروم الدانية القطوف .

فليترك المسلمون « وليلى » بآثارها الرومانية ، وليشيدوا المدينة الاولى للحضارة الاسلامية بالمغرب.

وشيد المولى ادريس مدينة فاس فى هذه الارض الخصبة ، ودعا الله أن تكون دار علم وسلام وصلاح ، وفى وسط المدينة شيد الفاسيون ضريحه الخالد اعترافا بالجميل وشهادة على أن الله استجاب دعاءه يوم بنى فاس قائلا :

(اللهم انك تعلم انى ما اردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة ولا رياء ولا سمعة ومكابرة ، وانما أن تعبد بها ويتلى كتابك وتقام حدودك وشرائع دينك وسنة نبيك ، محمد صلى الله عليه وسلم ما بقيت الدنيا ، اللهم وفق سكانها وقطانها للخير واعنهم عليه واكفهم مؤونة أعدائهم وادرر عليهم الارزاق واغمد عنهم سيف الفتنة والشقاق انك على كل شىء قدير).

وتدفقت الخيرات على المدينة المسلمة الآمنة التى ظل اهلها يعيشون فى سلام واطمئنان ومحبة وصفاء وضاقت الشوارع بالدكاكين فى حركة دائبة ونشاط مستمر وتعاون انسانى بناء ، وازدحمت المعامل والمصانع بالصناع والعمال فتخصص كل واحد فى مهنته يتقنها ويسويها حتى اصبحت مدينة فاس مشهورة بصناعتها ومهارة سكانها فى البناء والعمران.

تاسيس القـــرويـيـــن

ولم يتم الزمان دورته حتى اكتظت المدينة الجميلة بالسكان حيث ورد عليها عشرات الاندلسيين بعد ان ضيق الخليفة الحكم بن هشام على الفقهاء ، كما هاجر اليها عشرات القيروانيين من تونس ، فخصص المولى ادريس القطاع الشرقى من فاس المعروف بعـدوة الاندلس ، للاندلسيين سنة 192 هـ 808 م والقطاع الغربى للقيروانيين . كما سكنت فاس قبائل مغربية فى العدوتين التى ضمتا البربر والعرب وتأسست بفاس أول حكومة مغربية اسلامية او ما يعبر عنه بالمخزن .

وكان من بين القيروانيين النازحين الى هـذه المدينة محمد بن عبد الله الذى توفى بعد وصوله لفاس وترك فتاتين عابدتين وثروة طائلة ، وبكت فاطمة اباها واسترخصت ثروتها لتخليد اسمه فى عمل جليـل خالـد وتوجهـت الـى اللـه قانتـة صادقـة ، وترك ابوهـا الراحـل وصيـة لابنتيه لينفقـا مـا تـرك فى عمـل جليـل مـن مالـه الحلال ، وحارت فاطمة ومريم ، وانثقلت الامانة كاهل فاطمة القانتة ، وكانت فى صلاتها بمسجـد الشرفاء بالعدوة الغربية او بمسجد الاشياخ بالعدوة الشرقية ، لا تجد مكانا للصلاة ، فقد ضاق المسجدان بالمصلين بعد ان كبرت المدينة ووجدت فاطمة طريق الخلود ونذرت ان تبنى مسجدا عظيما ، يتدفق منـه الايمـان والعلـم ، واشتـرت ارضـا لاشبهـة فيهـا مـن مـال حـلال وفى أرض لا نزاع فيها ولا خلاف بين ملاكها ، وآلت على نفسها الا يبنى الا بتربة نفس الارض المشتراة حتى يكون التراب طاهرا ، وان يغرف البناؤون مـن بئر يحفر فى أرض المسجد حتى لا يحملوا ماء ربمـا يكون غير طاهر ، ووضعت الحجرة الاولى ودشن الفاس المبارك الارض الطيبة فى اول رمضان سنة 245 ونذرت فاطمة لله أن تصوم طيلة ايام البنـاء داعية محتسبة ان يكون اعظم مسجد فى ديار الاسلام.

وجادت الارض بالماء والعيون والحجر والرمل . . وانتهى بناء مسجد جميل مربع طوله تسعة وثلاثون مترا وعرضـه اثنان وثلاثـون مترا ، يتألـف من اربعة اساكيب واثنـى عشر بلاطا والصومعة تواجه المحراب فى مكان (العنزة) اليوم وصلت فاطمة فى مسجدها ، وقد قرت نفسها بعملها الجليل الخالد

مسجـد القـرويين

ثم اصبحت القرويين بعد نحو قرن من تأسيسها فى حاجة الى التوسع والاصـلاح فأضاف الامـراء (الزناتيون) باسهام من الامويين الاندلسيين نحوا من ثلاثة آلاف متر مربع الى المسجد القديم واصبحت القرويين تشمل ثلاثة عشر اسكوبا وثمانية عشر بلاطا ثم زاد المرابطون فيها نحوا من الف وثمانية متر مربع فأصبحت فى صورتها الحالية تشمل ستة عشر اسكوبا وواحدا وعشرين بلاطا و 306 سارية وسبعة عشر بـابـا .

وعمـل المومنـون فى عهـد المرابطين وعهـد الموحدين والمرينيين والوطاسيين والسعديين والعلويين على خدمتها واصلاحها واضافة مرافق جديدة اليها ، واستنفذ الفنان المرابطى طاقته فى تجميل القرويين فمن رقة الفن وروعة الزخرفة الى جلال البناء واكتشف الفنان المغربى مجاهله النفسيـة فانعكست موهبتـه منحوتة على الجس والمرمر والآجر ، ولما جاء الموحدون طمسوا معالم الفن المرابطى لان الفنان الموحدى يتقشف ضد الزخرفة متوجها للمتانة الخالصة ، والاعتدل فى الفن واقامة البنيان علـى اسس حجرية متراكبة مجللة بتاج ساذج ينافس رقة الفن المرابطى وانغماسه فى ترف الزخرفة والالوان ، مما كان الموحدون يرونه يلهى عن الاغراق فى العبادة .

الصحـــن

وصحن القرويين يتوسط ابهاء المسجد الداخلى والجناحين الكبيرين بجناح الصومعة وجناح المستودعات وبه (خصص (1)) ثلاثة « الوسطى » الجميلة والخصة

(1) الخصة بالاصطلاح الحضارى المغربى تعنى نافورة صغيرة للماء

« الحسناء » التى عليها قبة سعدية بديعة النقش وتقابلها قبة اخرى فى روعتها وتناسقها على هيئة ابهاء غرناطة .

والعنزة هى المحراب الصيفى حيث يصلى المؤمنون صلاة المغرب والعشاء فى فترة الصيف ويستمعون لدروس دينية ومحاضرات عامة .

وترتبط الخصص والفنيقيات العظيمة بممرات مبلطة بالفسيفساء الرقيق الصنع ومسرب مائى يلطف من حرارة الجو ايام الصيف . وزينت الجدران بساعات رخامية تحدد الساعات حسب انعكاس الظل .

الصومعة

تعتبر صومعة القرويين فريدة فى المغرب ، لانها بنيت على هندسة المساجد القيروانية فى تونس ، فهى مربعة واسعة وعلى راسها قبة مفلطحة يعلوها صارى العلم بينما صوامع المغرب مستطيلة وفى نهايتها قبة صغيرة مستطيلة او مخرومة ، وهى من بناء الامير احمد بن ابى بكر الزناتى عامل عبد الرحمن الناصر الاموى الاندلسى على بلاد العدوة . وقد اصلح هذا الامير مسجد القرويين وزاد فيه معتمدا على خمس غنائم الجهاد التى بعث بها الخليفة الاموى اسهاما فى بناء مسجد القرويين .

فبنى الصومعة بعد ان هدم التى كانت بوضع القبة حيث (العنزة) اليوم وصادف ان تنازع حفدة المولى ادريس فى سيف أبيهم ، فراودهم على بيعه حتى ارضاهم وجعله فى اعلى المنار .

وبجانب الصومعة برج لرصد الكواكب ورؤية الاهلة ونفير رمضان لاعلان الامساك والافطار .

ابواب القرويين

للقرويين 17 بابا تبتدىء من باب مجلس القضاة الموصلة الى ردهة كبيرة مسقوفة تتصل بداخل القرويين بواسطة بابين صغيرين يعتمدان على اساطين رخامية مجزعة وهذا هو جامع الجنائز ، حيث يخصص لوضع محامل الموتى الى أن يصلى عليها ، ثم باب الخلفاء طوله 3،82 وعرضه 2،14 المبنى به 531 وهو مصفح بكيفية فنية دقيقة ، ثم باب الشماعين ، ثم باب الصالحين ، ثم باب الكتبيين ، ثم باب الشهود ثم باب الحفاة الذى يضطر الانسان ان يمر فيه على الماء حتى يغسل رجليه ، ثم باب الوردة المقابل للخصة الحسناء ، ثم باب الخصة الذى يقابل مدرسة المصباحيين وكانت بينها وبين المدرسة حجرة وقف عليها حبس لتنظيفها وغسلها حتى يستطيع الطالب أن يخرج من المدرسة ويضع رجله اليمنى عليها ورجله اليسرى فى داخل القرويين وبذلك يظل منقطعا الى الدرس لا يضطر لشراء نعل لرجليه .

ثم باب النساء ، وباب ابن عمر ، وباب حيون وباب السبع لويات ، وباب خلوة الصوفية وباب الحدودى وباب الخوخة .

الجناحان

يتقابل الجناحان فى طرفى الصحن ويحتوى كل جناح على مكان للوضوء من المرمر، والتصميم المعمارى ماخوذ من صحن الاسد بغرناطة مع ملاحظة تقوية الالوان وكثرة التزيين بالنقوش والرخام والنجارة فى السقف ، وتعتمد القبة على أسوار . تتجلى فى جمالها عبقرية الفنان المغربى فى العصر السعدى حيث نحت الرخام بدقة ونحت فيه آيات قرآنية بخط زهرى الشكل ، وزين راس السارية بتاج بديع ذى نتوء دقيقة تعبر عما فى قلب الفنان من لواعج الشوق للخروج من المغلق والانفتاح على المجهول .

اما سقفها فزين بالقرميد الاخضر الذى يحميها من حرارة القيظ ووطاة الثلج والبرد .

وتحت جناح قبة السعديين الغربية القبة الحسناء التى تغنى بجمالها الشعراء وتجاور نافذة رخامية بديعة الشكل تحتوى على مائة واربعة وعشرين خاتما مرسومة فى الرخام بدقة هندسية لم يحدث معها اى خرم او خطأ فى الرسم وعلى القبة الآجر الازرق المفروغ فى قوالب اسطوانية .

المستودع

ولا تتاخر المراة عن اداء الصلاة فى المسجد فى

وقتها المحدد ولكنها احتفاظا بحرمتها يخصص لها جناح خاص عليه سياج من خشب الابنوس الدقيق الصنع حتى ترى من خلاله المسجد الجامع والفن الدقيق ولا ينظر اليها احد من المصلين لتنقطع عبادتها لربها عن كل شيء يربطها بالحياة .

وبجانب مسجد القرويين توجد دار صغيرة محبسة على النساء المصليات ليتوضأن قبل اداء الصلاة حتى اذا اتممن شعائر الوضوء والطهارة دخلن المسجد من باب قريب من الدار المخصصة لهن حيث يجلسن فى المستودع موقرات محترمات . وكما خصص للنساء جناح خاص ، خصص للصوفيين والعباد خلوة خاصة للعبادة لا يكدر صفوها ضجيج فهى متباعدة فى زاوية نائية ، شيدها ابو فارس المرينى فى الصف الاول من المسجد وتقابلها خلوة اخرى بعيدة عن الضوضاء قريبة من باب مجلس العلماء .

الخصة الوسطى

وهى من أروع ما نحتته يد الفنان المغربى حيث استطاع ان يقيم على قاعدة مربعة صحنا جميلا يغمره الماء وتتدفق من اعلاه المياه بغزارة ليرمز بذلك الى العلم الذى يتدفق فى أرض القرويين الخصبة وعندما تنعكس اشعة الشمس على الماء يربط النور بين الارض والسماء فى هذا المسجد العظيم .

المزولة الشمسية

والزمان لن يحاربه المومنون الا بالتسابق الى اعمال البر والخير ، وهكذا كانت الساعات فى كل نواحى القرويين توقظ المومنين للعمل ، وعدم الاتكال والمزاول الرخامية صنعتها يد الفنان المغربى الذى ينقشها على الرخام الابيض . طبق مخطط هندسى دقيق وتكتب أرقامها واضحة لبساطتها حتى يفهمها الجميع .

داخل المسجد

اما داخل المسجد فهو مغطى ببناء عال له سقوف معتمدة على ركائز من الابنوس المتين ، وقد عملت بها يد الفنان ، فلم « تترك جانبا الا زخرفته ودفن بأولها (طلسم الامان) من شرور الحشرات المؤذية وتتدلى منها مصابيح كثيرة ، وثريا جميلة كانت تملا بزيت الزيتون اللامع الضوء ، ثم أصبحت تضاء بالكهرباء .

واساطين القرويين تتداخل وتتفارق فى هندسة بديعة ، وبالقرويين 241 سارية عالية 34 سارية رخامية صغرى فى الجناح السعدى ، وباب مسجد الجنائز ، وزاوية العباد و 51 سارية حائطية تعتمد عليها الاقواس والحنايا ، وتمتاز سوارى المرابطين بتربيعها اما السارية السعدية والمرينية فمستديرة مزينة بتاج جميل .. ومن بين السوارى السعدية سوارى من المرمر الملون بجامع الجنائز طول الواحدة متر و 46 فى علوها 22 سنتم فى قطرها وقاعدتها من علو 20 سنتيمتر ، وقد نقشت عليها زهور الاقنتا والاقناتوس والاقحوان .

الثريا الكبرى

وهى عمل فنى دقيق من آثار الموحدين ، لا تضاهيها فى المغرب القديم الا ثريا مسجد مدينة تازة المرينى ، وتحت هذه الثريا الجميلة كانت تجتمع حلقات العلماء والكتاب واننا لنذكر يوم ان جلس تحتها اربعة شعراء نظرها اولهم فقال :

انظر الى ثريا نورها
يصدع باللآلىء سحب الغسق

اما الثانى فقال :

كأنها فى شكلها ربوة
انضم النور بها فاتسق

اما الشاعر العظيم مالك بن المرحل فقال :

اعيذها من شر ما يتقى
من فجاة العين برب الشفق

المحراب

عرفت القرويين بمحرابين ، الاول فى الجدار الشمالى الذى أثبت الفلكيون انحرافه الشديد عن القبلة الحقيقية فبنوا محرابا آخر فى شرق المسجد ، ولكنه ظل منحرفا ايضا فرسموا عليه صورة محراب منحرف نحو الشمال واحتياطا للسمت فقد اوقفوا على من

يقيم الصلاة ليامر المصلين ان ينحرفوا قليلا جهة الشمال على هيئة الامام ، وقد توج المحراب بلوحات فنية بديعة وكوات دقيقة ملونة ومصابح ونوافذ ملونة .

ويمين المحراب آثار فنيّة من عمل الفن المرينى الذى يهتم بتسطيح النقوش الناتئة وتسويتها ، والكتابة بحروف منسجمة مع الازهار فيها ، اما اعمدته فمطروزة الرؤوس مستديرة الساق ذات رؤوس مكعبة الرسوم، مورقة الاضلاع ، حلزونية الشكل ، زهرية ، وقد تطورت عملية بناء الاقواس من نصف دائرى بسيط ، الى حنايا متقطعة الى عقود تجاوزت النطاق الدائرى فى العصر المرينى .

الناقوس الكبير

هو المعلق بالبلاط الاوسط بالقرويين ، المقابل لباب الكتبيين وقد امر بتعليقه امير المومنين ابو الحسن بعد ان جعل فى جوانبه أجنحة قائمة متفرقة ليبقى ظاهرا عليها مراكز لقوارير الزجاج التى تشبع فيه وما تزال عليه نقوش باللاتينية اذ كان قبل ذلك ناقوسا باحدى كنائس الاندلس .

القبة المستطيلة

لقد استخدم النقاش المرابطى النحت فى الحجارة والمرمر والطين المطبوخ والمقربصات وعمل المرابطون على تلوين القبة التى فوق المحراب بالوان تستمد انعكاساتها الحربائية باختلاف اتجاه النور المنعكس عليها .

اما الترصيف بالخزفية فقد تساوقت مع المعطيات الجديدة فى الهندسة المعمارية وهى تقوم ازاء الافاريز والرسوم الوردية الشكل المحدقة بالمنارات والعصب الكتابية واطر الابواب .

وبعد هذا العصر شاع استعمال رؤوس الاساطين، واستعيض عن الاقواس المنصصة فى المنارات بأقواس على شكل هلال .

ويلاحظ وفرة التسطيرات والمقربصات الجميلة ، والتلوينات المختلفة فى هندام مكتمل وتوريق فاخر ، وتسطير مضبوط ونقش بارز مع تجانس فى نسب الوضع الفنى .

وفى سنة 540 حاصر الموحدون فاسا ليهدموا آثار المرابطين الذين كانوا يسمونهم بالمجسمين ، واتفق علماء القرويين على طمس روائع الفن المرابطى فأخفوا معالمه وغطوه بالجص لئلا يحطم الموحدون مسجد القرويين كما فعلوا بكتبية مراكش ولا استبعد أن يكون ذلك بايعاز من الموحدين انفسهم ، الذين عز عليهم ان يحطموا اعظم مسجد فى المغرب ... وقد ازيل الجص وعادت القرويين لما كانت عليه من قبل .

المنبر

ازدهر فى القرن الخامس النقش على الخشب وكان الفنانون ينحتون على المرمر والعاج وخشب الابنوس المركب من قطع صغيرة مثل التقاطيع التى يزين بها العود المرينى الرائع على خشب ارز الاطلس

الكرسي

والكرسى للعالم المتخصص ليملى درسا على الطلاب الكثيرين ، حيث يتباعدون فى الحلقة فيستطيعون رؤيته من بعيد والاستفادة من علمه . ومن حق القرويين أن تفخر انها سبقت الجامعات الى كراسى التخصص ، فكانت هذه الكراسى الكثيرة فى القرويين لمختلف المواد العلمية ، قبل أن تكون للعالم نفسه ، فهناك كرسى الحديث ، وكرسى الفقه ، وكرسى التفسير ، حتى اذا انتهى الاستاذ المتخصص جلس على الكرسى (الوراق) الذى يقرا ما فى الكتاب دون تفسيره ليستفيد جمهور المستمعين على شكل المحاضرات الاذاعية التى تلقى اليوم ليستفيد الجمهور المتعطش للمعرفة وليظلوا على اتصال بالثقافة الاسلامية .

وكان بالقرويين مائة كرسى لتدريس العلوم موزعة فى القرويين والمساجد التابعة لها علاوة على ست ومائة (106) مدرسة اولية للذكور والاناث وبها عشرون كرسيا للدروس المهمة ذات المستوى العالى فى القرويين ولا يناله الا من رشحه قاضى المدينة الذى هو مدير القرويين ، وكل كرسى له استاذ

خاص وكتاب خاص ووقف خاص به ايضا .

التاريخ الفكرى

للقرويين رسالة تعليمية وتثقيفية ، خاصة فكل استاذ مسؤول ادبيا عن تعليم العلم واشاعة الثقافة الاسلامية ، ويجب أن يلقى درسه على العموم رغم اختلاف المواد وتخصصه العلمى لان مقدرته ليست فيما يعرف من علم ، ولكن فى قدرته على شرحه وتبسيطه لذلك فالعامل والفلاح يجوز له ان يحضر درسه فى هذه الجامعة الشعبية ليستفيد من حلقات الدروس ، وهكذا كان الاستاذ يجلس على كرسى حسب قيمة الدرس ، يعلم العلم ويحارب الامية فى نفس الوقت وهو يعطى فى حصته الدراسية ما يفيد الطلاب ذوى المستوى العالى والاميين والمبتدئين على السواء بالاضافة الى المحافظة على سلسلة الروايات واخذ العلم من افواه العلماء ، على ان غالب الدروس الاملائية الدينية تكون بالمسجد اما دروس الحساب والفلك والطب والهندسة فتكون بالمدارس العلمية المعدة لذلك ولها اساتذة مختصون .

وقد ظلت القرويين تدافع عن المذهب المالكى ، والعقيدة الاشعرية وتحارب الامية ، مع التخصص فى البحث العلمى ، الذى كون جهابذة العلماء فى مختلف شعب المعرفة ، وكانت القرويين تخضع فى التوجيه التربوى لقاضى المدينة الذى له الحق فى تحويل الكراسى العلمية لمن رآه كفؤا لها من العلماء ، بتعاون مع مجلس من كبار العلماء ويخضع لسلطته محتسب المدينة الذى كان هو المتصرف فى مالية القرويين واحباسها والنفقة على الاساتذة والطلاب ، واصلاح المسجد ، وتجهيزه بالحصر والكراسى واضاءة المصابيح ، والنفقة على القائمين على تنظيمه والسهر على سيره الادارى ثم انتقل ذلك الى الاحباس .

وبلغت القرويين اوج مكانتها العلمية فى عهد بنى مرين حتى ذكر ابن ميمون انه ما راى مثلها ومثل علمائها فى غزارة الحفظ لنصوص المذاهب ولنصوص كل علم من العلوم، ويقول ابو الحسن ما رايت مثلها ومثل علمائها فى تلمسان وبجاية والشام وبلاد الحجاز ومصر ، على ما تقرر عندى . وقد شاهدت القرويين صراعات النظريات العلمية والمذاهب الكلامية والفلسفات الدينية ، وكانت حصن الاسلام ومعقل التفكير الاسلامى .

وتجاوزت شهرتها المغرب الى الخارج فدرس بها البابا سلفستر واستفاد من معارفها موسى ابن ميمون ، وغيرهم كثير .

المدارس العلمية

تحيط بالقرويين العظيمة عدة مدارس لايواء الطلبة ، وفيها ابهاء للمطالعة والدرس وعدد المدارس كثير جدا ، لان كل دولة تنافس الدولة السابقة . فى تقديم خدمات علمية ، ولذلك فالمدارس بمثابة الاحياء الجامعية اليوم ، فتوجد مدرسة بالحفارين ومدرسة يوسف بن تاشفين ومدرسة الصهريج ومدرسة العطارين ومدرسة الوادى ، ومدرسة الخصة ومدرسة ابى عنان ، وكل مدرسة تحتوى على بيوت للطلبة ، ويختلف عليها استاذان يراجعان مع التلاميذ دروسهم او يدرسون معهم بعض المواد ، التى لا تدرس فى القرويين لعمقها واقتصارها على المستويات العليا كالفلسفة والطب والهندسة ولكل مدرسة حارس نهارى وليلى ينظفها ويكلفان بشؤون الطلاب مع خزانة كتب صغيرة واحباس عليها.

ويتكلف الطلاب بنفقاتهم ويحملون بعض المواد الغذائية الى بيوتهم ، أما ادارة القرويين فتتكفل لهم بالخبزة والرغيف وبعض المواد الزيتية ومنحة شهرية اذا كان يلقى بعض دروس الوعظ او يقرا القرآن فى المساجد بعد صلاة المغرب مع اعانة سنوية مهمة زيادة على احترام السكان لهم حيث يتكفلون بتقديم الطعام الى الطلاب المنقطعين تقربا الى الخير وتزلفا الى البر والتقوى .

البوعنانية

المدرسة البوعنانية من آثار المرينيين ، اسسها ابو عنان المرينى تتجلى فيها روائع الفن المرينى

الاندلسى فى طرز رؤوس الاعمدة التى طعمت مجموع مظاهر الفن الاسلامى وتنظيم النقوش الناتئة . كما يلاحظ تطور الاقواس من نصف دائرية بسيطة الى حنايا منقطعة الى عقود تجاوزت النطاق الدائرى وتلعو احيانا اقواس اسكفة محمولة على دعامتى الباب . وتمتاز هذه القباب بنتوئها وتقعيرها ومقربصاتها المتساوقة .

اما جدرانها وابهاؤها فلا يوجد بها مكان الا وللفنان المرينى اثر فيه ولا تقع عينك الا على جمال ساحر لهذا الفن الرائع الذى جمع بين النقش فى الخشب والرخام والجبص .

وبجانبها ساعة مائية عظيمة تعلن عدد الساعات بواسطة صنجات كان يقرعها الماء السارى فى مسارب دقيقة تعمل طيلة النهار والليل بدون انقطاع .

مدرسة الشراطين

ومدرسة الشراطين مدرسة حديثة من آثار المولى الرشيد وهى رائعة الحسن عظيمة البناء ، ذات صحن جميل وثريا عظيمة وباب مصفحة بالبرنز فى نقش متداخل يمزج جمال الشكل الهندسى بروعة الفن ويلاحظ جمال رخامها المجلوب من ايطاليا .

وتظهر مهارة الجباص المغربى فى نحت مزيج فى الكلس والرخام فى التلبيسات المعمارية كما تتجلى عبقرية النجار فى برى وتقليم المداشر الخشبية ، التى تتكون منها قطع المقربصات ، وتفننت يد الزلايجى فى اقتطاع دقائق الزليج وتلوينها لتبليط الاديم والجدران بالفسيفساء والكوى وسيقان الاعمدة الدائرية ، ولاناقة النحوت الكتابية ، والرسوم الهندسية فان الصور الزهرية اصبحت تقتبس من ينابيع جديدة وبالاخص من مجموعة البنايات الفرسية التى تزدان سعوفها وزهرياتها بالقرنفل والسوسن .

خزانة القرويين

كانت القرويين كلية علمية ، لذلك فان بداخلها ثلاث خزائن تاريخية قديمة وبخارجها خزانة علمية جديدة ، واهم خزاناتها الاربع هى التى بناها المرينيون

قرب مقصورة خطيب المسجد وكتب على بابها نحتا على الخشب قانون مضمن اعارة الكتب وتضم من نفائس الكتب الشىء الكثير رغم تعرضها للنهب عدة مرات ، واما بيت الكتب المسمى بالخزانة العلمية فبابه مصفح (بالصفر) تقديرا لمكانة الكتب ولها قيمون اربعة يحتفظ كل (قيم) بمفتاح ولا يفتح الباب الا بعد ان يجتمع القيمون الاربعة وبها مصحف من هدايا آل عثمان الى المنصور السعدى بخط عجيب ، وقد أدرج فى صندوق مزخرف حبسه المنصور على القرويين ، كما كتب التحبيس عليه بخطه وتربه بالذهب الوهاج الذى ما زال اثره واضحا للعيان .

ومنها كتاب البيان والتحصيل للقاضى ابن رشد فى رق الغزال ، وهو جزء ضخم من جلود الغزلان فى غاية النظافة والصقالة ، وكتابته فى غاية التراص والاتساق من بدايته الى آخره وبه ثلاثمائة وثمانية عشر صحيفة تتصل كل صحيفة بأخرى بمعنى ان الاهاب الواحد يطوى لصحيفتين ولا شك ان الرق المنسلخ عن الغزال بعد اسقاط اطرافه يحمل أكثر من ذلك ولذلك يعد ان صحائف الكتاب استهلك تسعين ومائة غزال وتحضير مثل هذا العدد السالم من الرق واتقان دبغه من روائع الفن المغربى وقد تم نسخه سنه 720 بقلم احمد الصنهاجى .

واقدم كتاب بهذه الخزانة هو سيرة ابراهيم بن محمد الفزازى المكتوبة فى رق غزال سنة 270 هجرية والمتوفى مؤلفه سنة 186 هجرية وبها مختصر ابى مصعب احمد بن ابى بكر القاسم بن الحارث بن زرارة المتوفى بالمدينة سنة 242 ومن الآثار تاريخ العلامة ابن خلدون ومقدمة الكتاب باهداء المؤلف نفسه الى خزانة القرويين فاذا كان ابن خلدون عاش وزيرا بفاس وكتب بها مذكراته ، قبل ان يذهب الى مصر حيث ألف كتابه العظيم فقد ابى الا ان يوجه الى خزانة القرويين التى استفاد منها ، نسخة من كتابه العظيم.

وبمستودع منار القرويين مجانة خشبية من اهداء ابى سالم المرينى ، وتتركب من مربعين ولها اربع وعشرون نافذة تتفتح كل نافذة للاعلام بساعة ويتصل بها اسطرلاب فى دائرة اربعة وعشرين ناقوسا

وبها اربع ، اثنان من كل جهة ، وكانت تتعلق بها ثقاقيل من القرب تملأ ماء .

كما ان بها مختلف الساعات لضبط الوقت كالساعات الرملية والمائية والحائطية والمزاول الشمسية بالاضافة الى الاستعانة بالثقافة التنجيمية ، ورصد النجوم والكواكب وتعديلها واستخدام الربع المجيب والاسطرلاب واللوغاريتم والحصة الشهرية والسنوية لضبط الاوقات، حتى يمكن للمؤذن ان يعتمد على ذلك قبل الاذان بصوته الجميل فى صلاة الصبح او الظهر او العصر او المغرب او العشاء او الاذكار التى يؤنس بها الغرباء فى الليالى المدلهمة .

حياة الطلبة الدراسية

كان النظام المتبع فى القرويين تخصيص دروس الصباح للفقه ، والزوال للدروس اللسانية والعلوم الاخرى ، وطيلة هذه الدراسة تتكفل الاوقاف التابعة للقرويين بتموين الطلاب ومساعدتهم ولا تعطل الدراسة الا يوم الخميس والجمعة وجزءا من الصيف وشهر رمضان حيث يدرس الطلبة هذه المدة العلوم . السهلة الفهم كالتاريخ والسيرة الخ ، وعندما ينهى الطالب هذه المرحلة يحرز على اجازة بعد مناقشة العلماء ، وشهادة القرويين بكفاءته العلمية ، واجازته على ان فى وسعه ان يدرس ويعلم بل تنص الاجازة على المواد التى درسها ، واتقن دراستها واصبح فى وسعه ان يعلمها وكانت الاجازة امتحانا عسيرا لا محاباة فيه وعلى الطالب ان يظهر مقدرته امام جميع اساتذته .

وعند ما يتخرج الطالب يصبح استاذا او قاضيا او مفتيا مشاركا فى تكوين اطر الدولة الادارية على مختلف المستويات علاوة على ان الاطر الصغرى المكونة من العامل والفلاح والنحات والتاجر كلها تلقت تربيتها الاولى فى حلقات القرويين اما الاطر العليا فتعمل على تسيير الدولة فى مختلف وظائفها الوزارية والسفارية والقضائية والتقنية والطبية والصيدلية .

وكان فى وسع المتخرج ان يكون مفتيا اى يدافع عن مستفتيه امام القاضى ولكن بطريقة دراسته للقضية وكتابة تقرير الى القاضى لينظر فى ذلك التقرير بصفة استشارية فقط .

والطلاب الذين يتخرجون من القرويين يعودون لبلادهم الحضرية او القروية لينشروا الثقافة الاسلامية ويصونوا الجماعة الاسلامية ؛ ويظلون دائما على صلة بأساتذتهم حتى فى القرى او المدن ليحضروا دروس طلابهم ويشدوا ازرهم وحتى يؤدوا مهمتهم كاملة كما اداها اساتذتهم وآباؤهم من قبل .

توعية المجتمع

والتوعية الاجتماعية ، وتجنيد الامة للعمل البناء والامر بالمعروف تلك رسالة القرويين الاجتماعية .

وفى المسجد يجتمع المؤمنون ليتلقوا اخبار العالم الاسلامى ، ففى القرويين انشد الشعراء قصائد رقيقة للدفاع عن الاندلس يوم دهمها التعصب المسيحى .

وكان يفزع اليها المؤمنون طيلة ايام الاستعمار يستنكرون تعسفاته العدوانية فى اسلوبها المسالم بالتوجه الى الله (باللطيف) .

وقد سبقت القرويين فى اسلوبها السلمى اساليب غاندى وبقيت القرويين بين اليقظة الاسلامية والدعوة السليمة وخدمة الانسانية سواء ببرامجها التربوية او توعيتها الاجتماعية ، واتخاذها اسلوب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فى حدود ما امر الاسلام به .

وقبل ان يعرف العالم هيئة اليونسكو التى تدعو الى محاربة الامية وازاحة الحرب عن الافكار والدعوة الى السلام . كانت القرويين فى حلقاتها اليومية تحارب الامية وتحث على الاخاء والحب والسلام دون تفرقة جنسية او عنصرية او لونية او سلالية ، وتدعو الى مسالمة اهل الكتاب من اليهود والنصارى والى الجدل بالتى هى احسن واشاعة المحبة والخير، واستجاب المؤسسون لدعواتها فكانت عاصمة السلام ونبراس افريقيا الذى لا ينطفىء .

حفـلات الطلبـة بسلطـان الطلبـة

من العوائد المألوفة فى فاس ومراكش ان يتفزع طلبة كلية القرويين الى وادى فاس والى جنـان الحارثى ان كانوا من طلبة اليوسفية بمراكش لقضاء نزهة الربيع ، ويستعدون لهذا الحفل استعـدادا كاملا حيث يقيمون بينهم سلطانا منهم يستمر متوليا على عرشه الهزلى اسبوعا كاملا ، واحيانا يمددون العطلة عشرة ايام تنتهى بخلعه عن العرش المزعوم ومطاردته ويجتازون مراحل تقليدية لتنصيب هـذا السلطان فهم ينتظرون بداية فصل الربيع ليقدموا الى صاحب الجلالة ملك البلاد طلبا بالاذن باقامة الحفلة وعند ما يأذن لهم ، يجتمعون باحدى مدارس فـاس العتيقة كالعطارين أو (الشراطين حيث تباع السلطنة) فى المزاد العلنى ، ومن استطاع ان يؤدى اكثر من غيره فى هذا المزاد نال (السلطنة) ويسجل عدلان من المحكمة الشرعية ذلك ، ولا بد ان يكون السلطان (آفاقيا) اى من غير سكان فاس او مراكش ، وذلك تشجيعا للطلبة الغرباء واحتفاء بهم وتأنيسا لهم ، وعندما يعين سلطان الطلبة يؤسس حكومة مصغرة مؤلفة من وزير المالية يتولى الانفاق ، ومن (محتسب) كثير النقد والنكث والهزل فيضفى على الحفلة الوانا من العبث والسخرية والمجون البرىء .

وتهتم الحكومة بهذا الحفل ، فترسل لسلطان الطلبة كسوة مؤلفة من سلهام وكساء وجلباب والبدلة الداخلية وتجعل رهن اشارته فرسا جيدا وكوكبة من الفرسان وجوقة موسيقية عسكرية تصحبه لمقـر النـزهـة .

واول عمل يؤديه هذا السلطان هو الخروج فى موكب رسمى من المدرسة التى ينتمى اليها علـى الساعة الحادية عشرة فى حفل حاشد من اصدقائه الطلاب ، تتقدمهم الجوقة العسكريـة وتحـف بهم العسس والمخازنية فيتجه صوب مسجد الاندلس لاداء صلاة الجمعة ثم يغادره الى ضريح ابن ابى حرزهم حيث يوجد قبر المولى الرشيد مؤسس هذا الاحتفـال تخليدا لذكراه .

ثم يرجع مساء الى المدرسة التى خرج منها حيث يقضى ليلة ويغادرها فى اليوم التالى ، الى وادى الجواهر فى حفل رسمى ، ممتطيا جواده ، تحف به الاجواق الموسيقية ويتقدمه (المحتسب) يـداعب ويمازح الجمهور حتى اذا بدت طلعة سلطان الطلبة اهتزت الشوارع بالتصفيق والتهليل والزغاريد .

وعند ما يصل الى وادى فاس يجد سرادقـه الكبير وسط مخيمات (الاهالى) الذين يؤثرون النزهة فى وادى فاس مع سلطان الطلبة .

وتستمـر النزهة اسبوعـا كاملا ، وفى نهايتـه يشرف جلالـة الملك وخليفتـه سلطـان الطلبـة فى موكب عظيم حيث يقدم للطلاب هدايـا خاصـة يستعينون بها على قضاء باقى ايام النزهة .

وعند ما يصل جلالة الملـك يترجل سلطـان الطلبة ويقبل يده الكريمة كما يقدم الى جلالته رسالة يضمنها طلبه الخاص ، ثم يرجع الى الوراء ويركب فرسه ويتقدم ليقف قريبا منه حيث يحادثه جلالـة الملك ويتقدم المحتسب فيملى من هزله ومجونه وعبثه ما يضحك به جلالة الملك ويرحب سلطان الطلبـة بجلالة الملك ثم يخطب المحتسب او سلطان الطلبـة خطبة هزلية تضحك الجمهور ثم يرجع جلالة الملك فى موكب رسمى .

وفى نهاية الاسبوع يؤدى صلاة الجمعة فى حفل رسمى بمسجد ابى الجنود ثم يرجع الى مقر مملكته بوادى الجواهر بفاس .

ومن العادة ان يختفى سلطان الطلبة مساء يوم الجمعة لانهم اذا وجدوه يوم السبت صباحا اشبعوه ضربا ونكلوا به بطريقة هزلية .

اما الاعتمادات المالية المخصصة لهذا الحفل فتتكون من ثمن شراء سلطنة الطلبة التى يدفعها يوم المزاد العلنى ، ومن الهدايا التى يقدمها جلالة الملك يوم زيارته للطلبة ، ومن الضرائب التى يفرضهـا المحتسب على اغنياء المدينة بواسطة ظهائر ومراسيم موقعة بامضاء سلطان الطلبة ، ومن الذعائر التـى يفرضها المحتسب على اصحاب الدكاكين حيث يتهمهم بمخالفات السعر او الغش فى المبيعات فى جو مرح

ضاحك فيؤدونها راضين .

واما الجائزة التى تعطاه فهى التى يقدمها لجلالة الملك مكتوبة فى رسالة ولا تخرج عن طلب وظيفة (عدل) أو تسريح (سجين) .

القرويين فى العهد الجديد

وجاء عصر الحجر والحماية فاستمرت جامعة القرويين المجاهدة المكافحة ضد الاحتلال والتى جندت نفسها لترد الغزو الظالم عن كل اصلاح جديد سواء فى الدراسة او الادارة وقد سماها الجنرال اليوطى بالبيت المظلم وحذر الاستعمار منها ثم جاء الاستقلال ونظمت فى اطار وزارة التعليم المغربية فى وزارة التعليم مصلحة خاصة بها تشرف على التعليم الاسلامى فى القرويين ، وفى باقى المعاهد الدينية الكبرى فى المغرب كله ، وانفصلت ادارة التعليم الابتدائى عن الثانوى وعن العالى فتطورت المعاهد الاسلامية وخرجت الدراسة من المسجد الى المدرسة وارتفع عدد التلاميذ الى عشرة آلاف بدلا من ستمائة فى آخر عهد الحماية ، وتكونت فروع لها فى عدة جهات كما وقع الاهتمام بالدراسة التقنية ، الى جانب الدراسة الاسلامية .

ولم يعد الطالب يبتدىء الدراسة متى شاء بل حدد السن الدراسى ، الذى يبدا فى السابعة فى الابتدائى ويلج التلميذ القرويين فى سن الثالثة عشرة .

وبنيت مخابر عصرية ليقضى بها التلاميذ ساعة الدراسات التطبيقية فى العلوم والفيزياء والكمياء .

وبدلا من نظام البيت المدرسى والخبزة والاعانة السنوية بنيت داخليات تضم مئات الطلاب تشمل منامة حديثة ومطعما عصريا مجهزا بأحدث الآلات وقاعات للسينما والتلفزيون واندية للرياضة البدنية .

ولم تضع الروح الاسلامية وسط خضم المواد العلمية بل على العكس فالمادة الاسلامية قوام الدراسة فى القرويين والدروس العلمية كلها مستوحاة من التوجيه الاسلامى فالكيمياء والفيزياء والعلوم صبغت بالثقافة الاسلامية التى كونت الغزالى وابن سينا وابن رشد والفارابى وابن خلدون وابن باجة

وابن الطفيل وخرج الاستاذ من القرويين الى المسجد ليعظ الشعب ويعلم الامى كما كانت رسالة اساتذته من قبل .

واصبح التلميذ يجتاز مرحلة التعليم الابتدائى ليدخل للثانوى الاول وبعده الثانوى الثانى فيتخصص بعد ، اما بشعبة الآداب او الشريعة او العلوم وبعدها الى مرحلة التعليم العالى ليكون طالبا فى كلية الشريعة او كلية اصول الدين ، او كلية اللغة العربية او باقى الكليات حسب ميوله وثقافته وتعمل الثقافة الاسلامية لتصبغ التعليم المغربى بوحدة فكرية سليمة عربية اللغة اسلامية العقيدة .

وبالقرويين مئات الطلاب الافارقة من الكونغو وكينيا ومالى ، والسنغال ، والطوغو والسودان ، وساحل العاج ، والنيجر والحبشة ، كلهم يتزودون من علم القرويين ويكرعون من ينابيعها الفياضة ليؤدوا رسالتها فى افريقيا — كما بها طلاب من المانيا وروسيا واليابان .

وتأسس بها معهد للفتيات حيث تدرس فيه الفتاة المسلمة الثقافة الاسلامية وتتخصص فى الشعب الجديدة وتضيف الى المادة الاسلامية والعلمية دراسة التدبير المنزلى مع فن الطبخ وتفصيل الملابس وغير ذلك وهكذا أصبح معهد الفتيات مركزا للتكوين الاولى الموحد يدرس الجغرافيا والتاريخ والكيمياء واللغات الاجنبية، فى فصول نموذجية جديدة وبهن فتيات من افريقيا والمغرب العربى .

المراصد الفلكية

واذا كانت القرويين مركز النشاط الدينى الذى يستلزم المحافظة على الصلاة فى اوقاتها فقد اقتضى ذلك أن يهتم اهتماما دقيقا بأوقات الصلاة الخمس ورؤية هلال رمضان ومراقبة اهلة باقى الشهور لذلك بنى بجانب صومعة القرويين برج عظيم ترصد منه الكواكب والنجوم ويؤدى هذا البرج وظيفة علمية فلكية ، فيعلن عنه بالنفير والبوق والفيطة بداية الصيام ، ويرقب منه هلال العيد ، ويؤدى مهمة المرصد العلمى الدقيق (والبرج) هو المعمل التطبيقى

لمؤقت القرويين الذى يختار عادة من علماء الفلك والتنجيم ويقضى جل أوقاته بمكتبه الذى يوجد فى صومعة القرويين ، ويسمى بغرفة المؤقت التى بها عشرات الساعات الحائطية من مختلف الانواع والانماط والاحجام وبها مختلف أنواع الكرات الارضية والكرات الفلكية ليستعين المؤقت بكل ذلك على مهمته كما سبقت الاشارة اليه .

والموقت يتحمل مسؤولية دينية كبرى ، اذ عليه أن يقابل ويوفق بين الساعات الآلية والمزاول الشمسية ، ثم يعطى اشارة الاذان الى مؤذن القرويين فينادى المومنين الى الصلاة فتقتدى صوامع المدينة بآذان القرويين .

بيع الكتب بالمزاد

ولعل من أمتع عوائد القرويين طريقة بيع الكتب حيث تعرض كل يوم جمعة بعد الصلاة فى مزاد علنى ، منها المخطوط والمطبوع ويستفيد الطلبة الذين يحضرون عادة السوق كثيرا ، حيث يعرفون أسماء الكتب والمؤلفين ، يقدرون أثمانها التى تباع بها ويتعودون على معرفة أسماء المؤلفين والمؤلفات وأنواع المطابع والمخطوطات والخطاطين ، والتوقيعات وما الى ذلك وكم يكون ممتعا أن تسمع (الدلال) وهو يردد بصوت جوهرى ، مقدمة ابن خلدون طبعة بولاق الاولى من الحجم المتوسط كانت فى ملك العلامة المشهور القاضى الخ . .

وهكذا يتاح للطالب ان يتعرف على المؤلفات ويشتريها بثمن زهيد .

من نام ولم يصل

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم اذا هو نام ثلاث عقد يضرب كل عقدة عليك ليل طويل فارقد ، فان استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، فان توضا انحلت عقدة ، فان صلى انحلت عقدة ، فأصبح نشيطا طيب النفس ، والا أصبح خبيث النفس كسلان .

صحيح البخارى ، ج : 2 . 65